الحاجة إلى استعراض جديد

لمكتبة الأدب العربي

إنّ الأدب العربي قد أصيب بمحنة أصيب بها أدب كل أمة ، وهي محنة تكاد تكون طبيعية ومُطّردة للآداب واللغات ، إلا أنّ آجالها تختلف ، فقد يطول أجل هذه المحنة في أدب قوم ، ويقصر في أدب قوم آخرين ، وذلك يرجع إلى الأحوال الاجتماعية والعوامل السياسية ، وحركات الإصلاح والتجديد ، والبعث الجديد ، فإذا توفّرت في أمّة ، قصر أجل هذه المحنة ، واذا فُقِدَت أو ضعفت طال أمد هذه المحنة ، وطال شقاء الأدب والأمة بها .

إنّ هذه المحنة هو تسلّط أصحاب الصناعة والتكلّف على هذا الأدب ، الذين يتخذونه حرفة وصناعة ، ويحتكرونه احتكاراً ، ويتنافسون في تنميقه وتحبيره ، ليُثبتوا به براعتهم وتفوّقهم ، ويصلوا به إلى أغراضهم ؛ ويستمرُّ ذلك ويستفحل حتى يصبح الأدب مقصوراً عليهم ، مختصّاً بهم ، ويأتي على الناس زمان لا يُفهم من كلمة « الأدب » إلا ما أثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع ، وأدب تقليدي ، لا قوّة فيه ولا روح ، ولا جدّة فيه ولا طرافة ، ولا متعة فيه ولا لذّة .

ويطغى هذا الأدب الصّناعي التقليدي على كل ما يؤثر عن هذه الأمة وتحتوي عليه مكتبتها الفنيّة الزاخرة من أدب مطبوع ، وكلام مرسَل ، وتعبير بليغ يحرّك النفوس ، ويثير الإعجاب ، ويوسّع آفاق الفكر ، ويُغري بالتقليد ، ويبعث في النفس الثقة ، ولا عيب فيه إلا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا إلى الأدب والإنشاء ، ولم يتخذوه حرفة ومكسباً ، ولم يشتهروا بالصّناعة الأدبية ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يكن لهذا النتاج الأدبي الجميل الرائع عنوان أدبي ، ولم يكنْ في سياق أدبيّ ، وإنما جاء في بحث دبني أو كتاب علمي ، أو موضوع فلسفي أو اجتماعي ، فبقي مغموراً مطموراً في الأدب الديني ، أو الكتب العلمية ، ولم يشأ الأدب الصناعي ـ بكبريائه ـ أن يفسح له في مجلسه ، ولم ينتبه له مؤرخو الأدب ـ بضيق تفكيرهم وقصور نظرهم ـ فينوّهوا به ويعطوه مكانه اللائق به .

إنّ هذا الأدب المطبوع الجميل القوي كثير وقديم في المكتبة العربية ، بل هو أكبر سنًّا وأسبق زمناً من الأدب الصّناعي . فقد دُوِّن هذا الأدب في كتب الحديث والسيرة قبل أن يدون الأدب الصناعي في كتب الرسائل والمقامات ، ولكنه لم يحظ من دراسة الأدباء والباحثين وعنايتهم ما حظي به الأدب الصّناعي ، مع أنه هو الأدب الذي تجلّت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها ، وبراعة أهل اللغة ولباقتهم ، وهو مدرسة الأدب الأصيلة الأولى .

ونأخذ كتب الحديث والسيرة ـ كمثال لهذا الأدب المطبوع ـ أولاً فنقول انها اشتملت على معجزات بيانية وقِطَع أدبية ساحرة تخلو منها مكتبة الأدب العربي ـ على سعتها وغناها ـ ، وهو دليل على سعة هذه اللغة ومرونتها ، واقتدارها على التعبير الدقيق الرقيق عن خواطر ومشاعر ووجدانات وكيفيات نفسية عميقة دقيقة ، ووصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة ، وهي الكتب التي حفظت لنا مناهج كلام العرب الأولين وأساليب بيانهم ؛ ولئن صحّ ما قاله الرقاشي : « إنّ ما تكلّت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيّد المنظوم ، فلم يُحفظ من المنثور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره » فكتب الحديث النبوي تسدُّ هذا الفراغ الواقع في تاريخ الأدب العربي ، وتنقل إلينا هذا الذّخر الأدبي الذي اعتُقد أنه قد ضاع ، وتمتاز بأنها قد اتّصل سندها وصحّت روايتهـا ، فهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة التي كانت سائدة في عهدها الذهبي الأول ، والأدب العربي الذي كان منتشراً في جزيرة العرب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إنّ هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة وطويلة ، وكلها أمثلة جميلة للغة العرب العرباء التي كانوا يتكلمون بها ويعبّرون فيها عن ضمائرهم وخواطرهم ، ويجد دارس الأدب العربي فيها من البلاغة العربية ، والقدرة البيانية ، والوصف الدقيق ، والتعبير الرقيق ، ومن عدم التكلف والصناعة ما يقف أمامه خاشعاً معترفاً للرُّواة بالبلاغة والتحرّي في صحة النقل والرواية ، وللغة العربية بالسعة والجمال .

أما الروايات الطويلة فهي ثروة أدبية ذات قيمة فنية عظيمة ، وهي التي تجلت فيها بلاغة الرّاوي العربي واقتداره على الوصف والتعبير والتصوير ، وهي التي يطول فيها نَفَسه فيحكي حكاية يعبّر فيها عن معانٍ كثيرة ، وأحاسيس دقيقة ، ومناظر متنوعة ، فلا يخذله اللسان ولا يخونه البيان ، ولا يتخلّف عنه مدد اللغة ، وكأنها لوحة فنية منسجمة متناسقة قد أبدع فيها الفنّان ، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصوِّر كلّ الإحسان .

اقرأ معي حديث كعب بن مالك عن تخلّفه عن غزوة تبوك (١) ، وهو موضوع دقيق مُحرِج يطلب منه الصراحة والاعتراف بالتقصير ، والشهادة على النفس ، ويطلب منه تصوير ذلك الجوّ القاتم العابس الذي عاش فيه خمسين ليلة ، ويطلب منه تصوير الخواطر التي كانت تجيش في صدره وتساور نفسه ، وهو يعيش في جفاء وعتاب ممن يحبهم ، وتربطه بهم العقيدة والعاطفة ، لا يجد لذّة في فراقهم ، ولا يرى في الدنيا عِوَضاً عنهم ، وتصوير تلك الصلة الروحية والحب العميق الذي يربطه بالنبي ﷺ ربطاً وثيقاً محكماً لا يحلّه العتاب والعقاب ، ولا يُضعفه إقبال الملوك عليه وتودّدهم اليه ، وتصوير ذلك السرور الذي غمره على إثر قبول توبته ، ما أصعب هذا الموضوع ، وما أكثره تعقّداً ودقة ، ولكنه ببلاغته العربية يتغلب على هذه المشاكل النفسية والأدبية ، ويترك لنا ثروة أدبية نعتزّ بها .

(١) اقرأه في كتاب المغازي من صحيح البخاري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اقرأ معي هذه القطعة الصغيرة التي أقتبسُها من حديثه الطويل ، وهو يحكي ما أحاط بهذه الغزوة العظيمة من ظروف واجواء ، ويصور تلك الحالة النفسية التي تخلَّف فيها عن هذه الغزوة ، وما انتابه من التردُّد ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من سيرته وعادته ، وتمتَّعْ بما احتوت عليه هذه القطعة من القوة والجمال ، وصدق التصوير ، وبراعة التعبير :

« وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظِّلال ، وتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم فأرجع ولم أقض شيئا ، فأقول في نفسي وأنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد الجدّ ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً . فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ، ثم ألحقهم ، فغدوتُ بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعتُ ولم أقض شيئاً ، ثم غدوتُ ، فرجعتُ ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممتُ أن أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت ، فلم يقدَّر لي ذلك ، فكنتُ إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ ، فطفت فيهم ، أحزنني أني لا أرى إلاَّ رجلاً مغموصاً عليه النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله من الضعفاء » .

ثم انظر كيف يصوِّر حالته وقد هجره المسلمون ونُهوا عن كلامه ، وكيف يعبِّر عن حالة الحُبّ الذي هجره الحبيب ـ عقوبة وتأديبا ـ وهو يطمع في ودّه ويتسلى بنظراته ، والذي لم يزده هذا العتاب إلا رسوخاً في المحبة ولوعة وجوى ، دعه يقصّ قصته بلسانه البليغ :

« ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلَّف عنه ، فاجتنبَنَا الناس ، وتغيروا لنا حتى تنكَّرت في نفسي الأرض ، فما هي التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم ، فكنتُ أخرج وأشهد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا ، ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر ، فاذا أقبلتُ على صلاتي أقبل إليّ ، واذا التفتُّ نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليّ ، فسلّمت عليه ، فو الله ما ردّ عليّ السلام ، فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحبّ الله ورسوله ؟ فسكتَ فعدتُ له فنشدته فسكتَ ، فعُدتُ له فنشدتُه فقال : « الله ورسوله أعلم » ، ففاضت عيناي ، وتوليتُ حتى تسوَّرت الجدار » .

واقرأ معي كذلك حديث الإفك[1] الذي ظهرت فيه براعة السيدة عائشة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) الأدبية ، وقوتها البيانية وحسن تصويرها ووصفها للعواطف والمشاعر النسوية اللطيفة الدقيقة ، وقد تجلت في هذه القطعة رِقةُ عاطفة المرأة المُحِبَّة لزوجها مع إباء الحُرّة الواثقة بعفافها وطهارتها المؤمنة بربها ، وقد أضفى هذا المزيج الغريب من الرّقة والشدّة والعاطفة والعقل ، زد الى ذلك بيان عائشة التي تقلبت في أعطاف البلاغة العربية ، وانتقلت فيها من بيت الى بيت ، قد أضفي كل ذلك على هذه الرواية من الجمال الفني ما يجعلها من القطع الأدبية الخالدة في العربية .

انظر كيف تصف ما تقوّله الناس وتحدّثوا به وما شعرتْ به من تغيُّر في وجه رسول الله ﷺ ، تذكر كل ذلك في حياء المرأة وأدبها ، من غير إبهام أو عيّ :

« قالت عائشة ، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً ، والناس يُفيضون في أصحاب الإفك لا أشعر بشي من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف

(١) اقرأه في كتاب المغازي من صحيح البخاري أيضاً .

من رسول الله ﷺ اللطفَ الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل عليَّ رسول ﷺ فيسلّم ثم يقول كيف تيكم ؟ ثم ينصرف ، فذلك الذي يريبني ، ولا أشعر بالشرّ » .

وتذكر توجعها من الخبر المُشاع فتقول : « فبكيت يومي ذلك كله ، ولا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم . قالت وأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ويوماً ، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع ، حتى أني لأظن أنّ البكاء فاتق كبدي » .

وتتقدّم في الحكاية ، وتذكر كيف يسألها رسول الله ﷺ عما قيل عنها ، ويعزم عليها الصدق ، فلا تلبث أن تعتريها حميّةُ المرأة العفيفة الفاضلة ، ويقلص دمعها حتى لا تحسّ منها بقطرة ، وترجو أباها وأمّها أن يجيبا عنها رسول الله ﷺ ، فيمتنعان ويفضّلان السكوت ، حياءً من رسول الله ﷺ واستحياءً لا من الدفاع عن قضية بنتهما ، وهو الدفاع عن النفس ، فتنبري للكلام القوي الصريح المُبين ـ وهي البليغة الأديبة ـ وتتمثّل بقول سيدنا يعقوب وتفوّض أمرها الى الله . وتنزل براءتها من السماء فتطلب منها أمّها أن تشكر رسول الله ﷺ وتقوم اليه فتأبى ـ في دلال العفائف وأنفة المؤمن ـ أن تحمد إلا الله الذي أنزل براءتها من فوق سبع سمٰوات وخلّد طهارتها إلى آخر يوم يقرأ فيه القرآن ويؤمن به .

واقرأ كذلك حكايتها للهجرة النبوية[1] وذكرها لتفاصيلها ، وما وقع لرسول الله ﷺ وصاحبه رضي الله عنه في الطريق ووصولها إلى المدينة ، وكيف تلقّاهما الأنصار ، وفرحوا بقدوم رسول الله ﷺ ، وكل ذلك مثال رائع للوصف الدقيق البليغ والبيان القادر الوصّاف .

(١) راجع الجامع الصحيح للبخاري الجزء الأول باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة المنورة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهنالك روايات أخرى طويلة النَّفَس ، ضافية البيان ، تشتمل على غرر الكلام وبدائعه الحسان ، ومناهج العرب الأولين في كلامهم ، كحديث صلح الحديبية ، وحديث الإبلاء ، وغير ذلك ، كانت تستحق أن تكون في المكانة الأولى في دراساتنا الأدبية ، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين والناقدين ، لأنها لم تدخل في دواوين الأدب ، ولأن تصوُّرهم للأدب كان تصوراً محدوداً جامداً لا يعدو الصِّناعة .

ويَلي الحديثَ كتبُ السيرة فقد حفظت لنا جزءاً كبيراً من كلام العرب الأفحاح ، ومثَّلت تلك اللغة البليغة التي كانت السائدة في عصور العربية الأولى ، وهذَّبها الإسلام ورقَّقها ، واشتملت على قطع أدبية لا يوجد لها نظير في المكتبة العربية المتأخرة .

إقرأ في سيرة ابن هشام حديث حليمة ابنة أبي ذؤيب السَّعدية عن رضاعة رسول الله ﷺ واقرأ فيها قصص الاضطهاد والتعذيب ، واقرأ فيها مغازي رسول الله ﷺ وحروبه تجد من القدرة الفائقة على الوصف والتعبير والبيان الساحر لدقائق الحياة وخوالج النفس ، وتَرَ من اللغة النقية الصافية واللفظ الخفيف اللطيف ، والتعبير الدقيق الرقيق ما يُطربك ويملأك سروراً ولذة وثقة وإيماناً بعبقرية هذه اللغة ، ورغبةً في دراستها والتوسع فيها .

وهكذا صان الله هذه اللغة الكريمة الأمينة للقرآن من الضياع ، وانتقلت ثروتها من جيل إلى جيل ، ومن كتاب إلى كتاب ، حتى جاء دور التأليف والتاريخ في القرن الثالث والرابع ، وحفظ لنا المؤرخون أمثال الطبري والمسعودي ، والأدباء أمثال الجاحظ وابن قتيبة ، وأبو الفرج الأصبهاني ، ثروة زاخرة من الأدب في كتبهم ، وحفظوا لنا تلك اللغة العذبة البليغة التي كان العرب الصرحاء يتكلمون بها في بيوتهم وعلى موائدهم وفي مجالس انبساطهم ، وجاء منها الشيء الكثير في كتاب « البخلاء » للجاحظ ، وكتاب « الإمامة والسياسة » لابن قتيبة ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

و كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني (على ضآلة قيمة الكتابين الأخيرين التاريخية) ، وهذه كتب التاريخ والأدب التي تمثل لنا العربية في جمالها الأول ، ونقائها الأصيل ، وسعتها النادرة .

ثم جاء دور المتكلّفين المقلدين للعجم ، ونَبَغَ في العواصم العربيـة أمثال أبي اسحق الصابي ، وأبي الفضل ابن العميد ، والصاحب بن عبّاد ، وأبي بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني ، وأبي العلاء المعرّي ، واخترعوا أسلوباً للكتابة والإنشاء هو بالصناعة اليدوية والوشي والتطريز أشبه منه بالبيان العربي السلسال وكلام العرب الأولين المرسل الجاري مع الطبع ، وغلب عليهم السجع والبديع ، وغلوا في ذلك غلوّاً أذهب بهاء اللغة ورواءها ، وقيّد الأدب بسلاسل وأغلال أفقدته حريته وانطلاقه وخِفّـة روحه وجماله .

وتزعّمَ هؤلاء الأدب العربي واحتكروه ، وخضع لهم العالم العربي والإسلامي لنفوذهم وعلوّ مكانتهم تارة ، وللانحطاط الفكري والاجتماعي الذي كان يسود على العالم الإسلامي أخرى ، وأصبح أسلوبهم للكتابة هو الأسلوب الوحيد الذي يُحتذى ويقلّد في العالم الإسلامي .

وجاء الحريري فألّف المقامات — وهو أسلوب الكتابة المسجعة المختصر — وقد تهيأت لقبولها العقول ، فعكف عليهـا العالم الإسلامي دراسةً وشرحاً وتقليداً وحفظاً ، وتغلغلت في مدارس الفكر والأدب ، وبقيت مسيطرة على العقول والأقلام أطول مدة تمتع بها كتاب أدبي ، وما ذاك لفضل الكِتاب ، بل لأنه قد وافق هوى في النفوس ، وصادف عصر الجمود والعقم الأدبي في العالم الإسلامي .

ثم جاء القاضي الفاضل ـ مجدّد أسلوب الحريري وبالأصح مقلده ـ وهو وزير أعظم دولة إسلامية في عصرها ، وكاتب سرّ أحب سلطان في عهـده صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين ومعيد مجد المسلمين ، فاستطار أسلوبه في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

العالم الإسلامي وحرص على تقليده الكُتّاب المنشئون في أنحاء المملكة الإسلامية .

وهكذا بقي أسلوب وحيد يتحكم في العالم الإسلامي ويسيطر على الأوساط الأدبية ، وأصبح ما خلّفه هؤلاء الكتاب المتصنعون من تراث أدبي هو المَعْنِيّ بالأدب العربي ، وجاء المؤرخون للأدب فاعتبروهم أئمة البلاغة ، وأمراء البيان ، وأصحاب الأساليب ، وقدّموا ما كتبوه ، وعرضوه للدارسين والباحثين ، وقلّد بعضهم بعضاً وتناقلوه ، وأصبحت كتب التاريخ والأدب نسخة واحدة ، وأصبحت الكتابة صورة واحدة من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، لا يُسْتَثْنَى من ذلك إلا عبقريان اثنان : أولهما ابن خلدون وثانيهما الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي [1] (م ١١٧٦ هـ) .

وتناسى هؤلاء ما كتب غيرهم وانصرف الناس - حتى الباحثين منهم - عن ذخائر الأدب العربي الثمينة ، ولم يفكر أحد في أن يبحث في كتب التاريخ والسير والتراجم ، وفي مؤلفات العلماء ، عن قطع أدبية رائعة تفوق - في قوتها وحيويتها ، وسلاستها وسلامتها وفي بلاغتها وجمال لغتها - على دواوين أدبية ومجاميع ورسائل أكبَّ عليها الناس وافتتنوا بها .

هذا وقد بقيت طائفة من العلماء - حتى في عصور الانحطاط الأدبي - غير خاضعين للأسلوب التقليدي في عصرهم ، متحرّرين من السجع والبديع والصناعة والمحسنات اللفظية ، يكتبون ويؤلفون في لغة عربية نقية ، وفي أسلوب مطبوع يتدفق بالحياة ، إذا قرأه الإنسان ملكه الإعجاب ، وآمن بفكرتهم وخضع لعقيدتهم ولما يقرّرونه ، وهذه القطع التي طُوِيت في أثناء كتب علمية أو دينية ، فجهلها الأدباء وزهد فيها تلاميذ الأدب هي من بقايا الأدب العربي الأصيل ، وهي التي عاشت لها العربية هذه السنين الطوال ، وهي التي يفرغ اليها المتأدِّب

(١) اقرأ كتابه الفريد « حجة الله البالغة » ، واقرأ ترجمة مؤلفه في « نزهة الخواطر » الجزء السادس ، طبع دائرة المعارف بحيدر آباد ، الهند .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المتذوّق ، وهي رياض خضراء في صحراء العربية القاحلة التي تمتدُّ من عصر ابن العميد إلى عصر القاضي الفاضل إلى أن جاء ابن خلدون .

إنّ ما كتب هؤلاء العلماء ، غير معتقدين أنهم يكتبون الأدب ، ولا زاعمين أنهم في مكانة عالية من الإنشاء ، هو الذي يُسعد العربية ويشرّفها أكثر مما يسعدها ويشرّفها كتابات الأدباء ورسائلهم ، وموضوعاتهم الأدبية ، وأخاف لو أنهم قصدوا الأدب وتكلفوا الإنشاء لفسدت كتابتهم وفقدت ذلك الرونق وتلك العذوبة التي تمتاز بها كتابتهم ، وخسرنا هذه القطع الجميلة المليئة بالحياة ، فقد التصقت بالأدب شروط وصفات وتقاليد هي المفسدة له الطامسة لنوره ، فلا بد فيه من السجع ، ولا بد فيه من الصناعة ، ولا بد فيه من البديع ، والمحسنات اللفظية ، ولا بد من تقليد من يُعَدُّ في الطبقة الأولى من الأدباء ، أما الكتابات العلمية والتاريخية أو الدينية فليست فيها هذه الالتزامات وهذه الشروط القاسية ، فتأتي أبلغ وأجمل .

ونرى الكاتب الواحد إذا تناول موضوعاً أدبيًّا وتكلف الإنشاء تدنّى وأسفّ وتعسّف وتكلّف ولم يأت بخير ، واذا استرسل في الكلام وكتب في موضوع علمي أو ديني أحسن وأجاد ، هكذا نرى الزمخشري متكلفاً مقلداً في « أطواق الذهب » وكاتباً موفقاً بليغاً في مقدمة « المفصل » وفي مواضع من تفسيره « الكشاف » ، وهكذا نجد ابن الجوزي غير موفق في كتابه « المدهش » ، وكاتباً مترسلاً بليغاً في كتابه « صيد الخاطر » ، وظني أنهما كانا يعتبران أثريها الأدبيين « أطواق الذهب » و « المدهش » من أفضل كتاباتهما الأدبية التي يعتمدان عليها ويفتخران بها ، ولعل عصرهما صفق لهذين الكتابين : « الأطواق والمدهش » أكثر مما صفق لكتاباتهما العلمية والأدبية والدينية ، ولكن قاضي الزمان وحاكم الذوق قد حكما بالعدل . وليس اليوم للكتابين الأولين قيمةٌ كبيرة ، أما « صيد الخاطر » و « تلبيس إبليس » و « المفصل » و « الكشاف » فهي جديرة بالبقاء ، جديرة بكل اعتناء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ليس السرُّ في فضل هذه الكتابات العلمية والدينية وتأثيرها وقوتها وجمالها هو التحرر من السجع والبديع وترسلها فحسب ، بل السبب الأكبر هو ان هذه الكتابات قد كتبت عن عقيدة وعاطفة ، وعن فكرة واقتناع ، وعن حماسة وعزم ، أما الكتابات الأدبية فقد كان غالبها يكتب بالاقتراح - من الملك أو الوزير أو الصديق - أو لإرضاء شهوة الأدب ، أو تحقيق رغبة المجتمع ، أو حبًّا للظهور والتفوق ، وهذه كلها دوافع سطحية لا تمنح الكتابة القوة والروح ، ولا تسبغ عليها لباس البقاء والخلود ، ولا تعطيها التأثير في النفوس والقلوب ، والفرق بينها وبين الكتابات المنبعثة من القلب والعقيدة كالفرق بين الصورة والإنسان ، وكالفرق بين النائحة والثكلى .

ويذكّرني هذا قصة رُويت لنا في الصبا ، وهو أن كلباً قال لغزال : مالي لا ألحقك وأنا من تعرف في العَدْو والقوة ؟ قال : لأنك تعدو لسيدك وأنا أعدو لنفسي . وقد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة أو دعوة يكتبون لأنفسهم ، يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم ، مندفعين منبعثين فتشتعل مواهبهم ويفيض خاطرهم ويحترق قلبهم فتنثال عليهم المعاني وتطاوعهم الألفاظ وتؤثر كتابتهم في نفوس قرائها ، لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلا في قلب .

أما هؤلاء المتصنّعون فانهم في كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثلين قد يمثلون الملوك فيتصنعون أبهة الملك ومظاهره ، وقد يمثلون الصعلوك فيتظاهرون بالفقر ، وقد يمثلون السعيد وقد يمثلون الشقي ، من غير أن يذوقوا لذة السعادة أو يكتووا بنار الشقاء ، وقد يعزّون من غير أن يشاركوا المفجوع في أحزانه ، وقد يهنئون من غير أن يشاركوا السعيد في أفراحه .

بالعكس من ذلك اقرأ كتابات الغزّالي في «الإحياء» وفي «المنقذ من الضلال» ، واقرأ خطب الشيخ عبد القادر الجيلي (رضي الله عنه) - ما صحّ منها - ، واقرأ ما كتبه

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القاضي ابن شداد عن صلاح الدين ، واقرأ ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية في كتبهما ، ترَ مثالاً رائعاً للكتابة الأدبية العالية يتدفق قوة وحياة وتأثيراً ، وذلك هو الأدب الحي الخليق بالبقاء ، ولا سبب لذلك إلا أنه كتب عن عقيدة وعاطفة .

وهنالك شيء آخر وهو أنّ الإيمان وصفاء النفس ، والاشتغال بالله والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء حسّ ، ولطافة نفس ، وعذوبة روح ، ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة ، واقتداراً على التعبير البليغ ، فتأتي كتابته كأنها قطعة من نفس صاحبها وصورة لروحه ، خفيفة على النفس ، مشرقة الديباجة ، لطيفة السبك ، بارعة في التصوير ، لذلك كان من الأدب الصوفي وفي كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها وقوّتها على مرّ العصور والأجيال ، وترى من ذلك نماذج ـ في كلام السادة : الحسن البصري وابن السماك والفضيل ابن عياض وابن عربي الطائي ـ تعدُّ من محاسن العربية ، واقرأ ـ على سبيل المثال ـ الحوار الذي دار بين ابن عربي ونفسه ، وسجله في رسالته « روح القدس » .

إن هذه القطع الأدبية الدافقة بالحياة والقوة والجمال كثيرة غير قليلة في المكتبة العربية ، إذا جُمعت تكونت منها مكتبة ، ولكنها منثورة مبعثرة في هذه المكتبة ، مطوية مغمورة في أوراق كتب ومؤلفات لا نجدها في ركن الأدب والإنشاء في مكتباتنا العربية ، ولا يذكرها المؤرخون للأدب في كتبهم ، هذه القطع هي أصدق تمثيلاً للغة العربية وأدبها الرفيع ومحاسنه من كثير من الكتب المختصة بالأدب ، ومن كثير من المجاميع والرسائل والمقامات والمقالات الأدبية التي تعتبر أساس الأدب ، وزهو العربية ، ومحصول العقول .

وهذه القطع هي التي تخدم اللغة والأدب أكثر مما تخدمها كتب اللغة والأدب ، وهي التي تفتق القريحة وتنشط الذهن ، وتُقوّي الذوق السليم ، وتعلّم الكتابة الحقيقية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إنّ هذه القطع والنصوص منثورة كما قلت في كتب الحديث والسيرة والتاريخ وكتب الطبقات والتراجم ، والرحلات ، وفي الكتب التي ألفت في الإصلاح الديني والأخلاق والاجتماع ، وفي بحوث علمية ودينية ، وفي كتب الوعظ والتصوف ، وفي الكتب التي سجّل فيها المؤلفون خواطرهم وتجارب حياتهم ، وملاحظاتهم وانطباعاتهم ، ورووا فيها قصة حياتهم ، هذه ثروة أدبية زاخرة تكاد تكون ضائعة ، وقد جنى هذا الإهمال على اللغة والأدب ، وعلى الكتابة والإنشاء وعلى التأليف والتصنيف وعلى التفكير فقد حرمه مادة غزيرة من التعبير ، وباعثاً قوياً للتفكير .

مخطئ من يظنّ أن المكتبة العربية قد استُنفِدَت وعُصِرَت إلى آخر قطراتها ، إنها لا تزال مجهولة تحتاج إلى اكتشافات ومغامرات ، إنها لا تزال بكراً جديدة تعطي الجديد وتفجأ بالغريب المجهول ، إنه لا تزال فيها ثروة دفينة تنتظر من يحفرها ويثيرها .

إنّ مكتبة الأدب العربي في حاجة شديدة إلى استعراض جديد ، وإلى دراسة جديدة ، وإلى عرض جديد .

ولكنّ هذه الدراسة وهذا الاستعراض يحتاجان إلى شيء كبير من الشجاعة ، والى شيء كبير من الصبر والاحتمال ، وإلى شيء كبير من رحابة الصدر وسعة النظر . فالذي يخوض فيها ليخرج على العالم بتحف أدبية جديدة وذخائر عربية جديدة ، ينبغي أن لا يكون ضيّق التفكير جامداً متعصباً في فهمه للأدب ، متعصباً لبلد أو لطبقة أو لعصر ، تهوله ضخامة العمل ، واتساع المكتبة العربية ، أو يوحشه عنوان دبني أو يمنعه ـ من الاختبار والدراسة ـ اسم قديم لا صلة له بالأدب والأدباء ، يجب أن يكون حرّ التفكير ، واسع الأفق ، بعيد النظر ، متطلعاً إلى الدراسة والتجربة ، واسع الاطلاع على الكنوز القديمة ، يفهم الأدب في أوسع معانيه ، ويعتقد أنه تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب بليغ مبين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إنني لا أزدري كتب الأدب القديمة ـ من رسائل ومقامات وغيرها ـ ولا أقلل قيمتها اللغوية والفنية ، وأعتقد أنها مرحلة طبيعية في حياة اللغات والآداب ؛ ولكنني أعتقد أنها ليست الأدب كله ، وانها لا تحسن تمثيل أدبنا العالي الذي هو من أجل آداب العالم وأوسعها ، وانها جنت على القرائح والملكات الكتابية والمذاهب والطاقات وعلى صلاحية اللغة العربية ، ومنعت من التوسع والانطلاق في آفاق الفكر والتعبير ، والتحليق في أجواء الحقيقة والخيال ، وتخلفت بهذه الأمة العظيمة ذات اللغة العبقرية والأدب الفني فترة غير قصيرة ، فخير لنا أن نعطيها حظها من العناية والدراسة ونضعها في مكانها الطبيعي في تاريخ الأدب وطبقات الأدباء ، وأن ننقب في المكتبة العربية من جديد ، ونعرض على ناشئتنا وعلى الجيل الجديد نماذج جديدة من الكتب القديمة للأدب العربي ، حتى يتذوق جمال هذه اللغة ، وينشأ على الإبانة والتعبير البليغ ، ويتعرف بهذه المكتبة الواسعة ويستطيع أن يفيد منها .

إنه عمل ضخم لينوء به الأفراد ، إنه عمل المجامع العلمية والأدبية في العالم العربي ، فهل يفكر في ذلك مجمعنا العلمي في دمشق الذي خدم هذه اللغة وأدبها من نواح عديدة وجديدة ؟ ويسد هذا الفراغ الشائن في تقديم الأدب العربي ؟

إنه تحية من فرد يختار ليكون عضواً في هذه الأسرة الكريمة ، وإنه اقتراح من رجل اشتغل بدراسة الأدب العربي في بلاد العجم ، وآمن بهذه اللغة وعبقريتها ، وأحبها أكثر من لغة بلاده ، لأنها لغة الكتاب الذي نال به الإيمان ، ولغة النبي الذي عرف به مقام الإنسان ، ولأنها لغة تستحق هذا التقدير وهذا الإكبار .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net